د. مظهر. محمد صالح *: الميثاق العظيم : حرب البارونات ام حرب المالية العامة ؟

١- كانت ليلة من اشد ليالي شمال اميركا بردا واكثرها عصفاً ولم تتركها الموجات الثلجية حتى اضحت الاشياء متدثرة قبل الارض في لحاف ثلجي ابيض .انها الرقائق البيضاء الناعمة القاسية التي حفرت في ذاكرتي يومها تساؤلاً كيف ستسير الحياة الدراسية في اليوم التالي؟ .

فاجأني النهار الذي اتسم بلمعان رقائق الثلج نفسها التي بدت اكثر سكونا واعلى هدوءاً لتطل علينا الظواهر الاجتماعية بمفاجئة غير متوقعة وهي هياج الطلبة وتحركهم بشكل انساق غير مألوفة الحركة .اذ بدء مسيراً بشرياً اخذ يطبع اقدامه فوق رقائق الثلج والجميع يهمس انها وثيقة ((مجنا كارتا Magna Carta)) بنسختها الاصلية انها تزور جامعتنا ووضعت للعرض في مبنى احتل الركن الشمالي الشرقي من مكان الجامعة . استمر زحف الطلاب صوب المبنى افواجا والذي اعتلت احدى جدرانه صورة باللونين الاسود و الأبيض (للملك جون) ملك انكلترا في القرن الثالث عشر الميلادي وهي تدلك من فورها ان خيول الحرب قد هدأت وانتهت ساكنة في ضحى يوم لم يتحسس ضياءه فرد وشتاء قارس لا قلب له. ظل مسير الطلبة يتدفق بهدوء من جهات متعددة وكأنك تنظر الى مسارات للنمل الاسود تزحف مصطفة فوق الثلج الابيض ببطء شديد. ولم اجد امامي من بُدٍ و انا الرجل القادم من صحاري شرق المتوسط الا الزحف مع تلك الخيوط البشرية التي شكلت لوناً غامقا يزحف بأرجله على الرقائق البيضاء حتى بلغ الجميع مكان العرض . ففي قاعة شديدة الدفء توسطها صندوق زجاجي كبير وضع على طاولة خشبية سوداء احاط الصندوق الزجاجي ضياء لامع، ورقد في داخل الصندوق مطبوع قديم كان ورقه اصفر يدلك حالاً انك تقترب من الف الثالث عشر الميلادي ، وقد خطت على ذلك الورق سطوراً

سوداء بالإنكليزية القديمة ،وهنا صاح الجميع و وتهامس انها ((مجنا كارتا - Magna Carta)) انه الميثاق العظيم الذي وقعه (الملك جون) ملك انكلترا في ١٥ حزيران من العام ١٢١٥ ميلادية، انها اساس الديمقراطية و المبادئ التي ضمتها لائحة حقوق الانسان الحديثة .

قلت في سري انه بحق ذلك

الميثاق العظيم الذي صاغه النبلاء البريطانيون في القرن الثالث عشر الميلادي بغية تقليص صلاحيات الملك جون المالية والسياسية ونفوذه وقدرته على الانفراد بالحكم. ثم اخذ الكل يهمس ان الملك جون الذي حكم بريطانيا بين الاعوام ١١٩٩-١٢١٦ كان ملكاً قاسياً يعشق السلطة والنفوذ وهو ملك دموي ضعيف الشخصية. هنا كررت القول في نفسي ان احداثاً جسام شهدتها انكلترا في القرن الثالث عشر الميلادي إبان حكم هذا الملك، وربما استطاع الاديب والكاتب المسرحي الانكليزي وليم شكسبير ان يجسد لنا سلوك الملك نفسه في مسرحيته الشهيرة ((King John حياته وموته ...!)).

٢- لم يمنعني الفضول من ان اشارك البعض في تساؤلاتهم واستفساراتهم عن دوافع وثيقة الميثاق العظيم في تلك القاعة التي اكتظت بالزائرين، وبالتأكيد انصرف تساؤلي عن الدوافع الاقتصادية والمالية منها تحديدا التي جاءت بها تلك الوثيقة العظيمة وثيقة مجنا كارتا- Magna Carta.

اذ يقول التاريخ الاقتصادي لإنكلترا، انه في القرن الثالث عشر الميلادي عندما تولى جون عرش المملكة، كانت انكلترا غارقة في الديون بسبب الحرب الطويلة مع فرنسا ما جعله يفرض ضرائب باهظة على النبلاء الإقطاعيين أو "البارونات" في بلاده لتمويل احتياجات مواصلة الحرب إثر النزاع على الاراضي بين البلدين. . ومع ضعف موقف الملك جون لم يتمكن الا ان يختم وثيقة المطالب العظيمة التي عرفت بالمجنا كارتا في ١٥ حزيران عام ١٢١٥. والتي نصت بشكل رئيس على الكثير من الحقوق للنبلاء وحماية حقوق الكنيسة والتجار وسكان المدن والقرى.

كما أنها كفلت بين السطور حقوق النساء والأطفال في الميراث، ونصت على أنه لا يجوز معاقبة الأشخاص على ارتكاب أي جرائم إلا إذا أدينوا بشكل قانوني.

حينها توجهت متسائلاً وموجها الانتباه الى رجل اكاديمي خمسيني العمر مختص بعلوم التاريخ الذي تولى مهمة شرح الماجنا كارتا لكل من يريد السؤال عن بعض تفاصيلها ، ولكوني من فضاء الاقتصاد ، سالت الرجل ما هو موقع السياسة المالية للملك جون في الميثاق الاعظم .

فأجابني الرجل بهدوء بعد ان علت فاهه ابتسامة ناطقة تقول انه لزمان ازيلت فيه الفوارق بين ثقافات الامم...! ليقول لي ايها الرجل القادم من شرق المتوسط: ان الوثيقة قد اعطت الحق للبارونات في إعلان الحرب على الملك إذا لم يلتزم ببنود (الماجنا كارتا) نفسها. ثم واصل قائلاً كما تعلم فقد نشأت مؤسسات الموازنة الحكومية في الغرب عموما وانكلترا خصوصاً إلى حد كبير نتيجة الصراع على السلطة بين السلطتين التشريعية والتنفيذية. ومع تراجع النظام الإقطاعي في اوروبا، أصبح من الضروري للملوك والأمراء الحصول على موارد لمشاريعهم بغية الانفاق عليها من الضرائب بدلاً من تقاضي رسوم رمزية هزيلة. ومع اختفاء الروابط الإقطاعية القديمة، طالب دافعو الضرائب من النبلاء و البارونات (باستشارتهم)قبل فرض ضرائب عليهم من الملك جون . وقد كُتب هذا في ماجنا كارتا في العام ١٢١٥ وفرض على المالك جون، التي نصت في واحدة من اهم فقراتها على ما يلي :

((لا يجوز فرض أي عون أو مساعدة في مملكتنا (اي الضرائب)إلا بموجب مشورة عامة (من رجال مملكتنا)باستثناء فدية تخصنا ، لجعل ابننا الأكبر فارسًا ، وتفرض مرة واحدة عند الزواج من ابنتنا الكبرى ، ولن يتم حينها سوى فرض ضريبة معقولة على هؤلاء)).

٣-!عدت (المجنا كارتا)أول وثيقة مكتوبة تؤسس لحكم القانون وتُحجم صلاحيات الملك ونفوذه وتسمح لملاك الأراضي الأثرياء بأن يكون لهم رأي في فرض الضرائب الجديدة التي يرغب الملك في فرضها. ولكن عند صياغتها، كان الهدف الرئيس من ورائها هو أن تكون ببساطة اتفاقية مؤقتة لتحقيق السلام ومنع نشوب حرب أهلية .

وعلى الرغم مما تقدم، فان امران مهمان حدثا في التاريخ المالي لإنكلترا نتيجة القيود التي جاءت بها الماجنا كارتا:

الاول: هو ما سمي بحرب البارونات The war of the barons

اذ لوحظ ان الملك جون ، لم يكترث ببنود الماجنا كارتا ومن ثم الالتزام بها مما أدى إلى نشوب حرب أهلية بين الملك من جهة، والبارونات الذين استعانوا بالجيش الفرنسي نظرا للعداء التاريخي الذي احتدم بين إنكلترا وفرنسا من جهة أخرى على الاراضي والجزر المتنازع عليها بين البلدين ، وعرفت تلك الحرب بحرب البارونات الأولى واستمرت عاما كاملاً ، وانتهت بوفاة الملك جون وتولي ابنه البالغ من العمر ٩ سنوات هنري الثالث عرش البلاد ، وقد تعهد الملك الجديد بالالتزام ببنود ماجنا كارتا وحظي بدعم البارونات انفسهم.

والثاني :ما يمكن تسميته بحرب المالية العامة War of Public Finance

اذ كانت قيود النبلاء على الملك تتعلق بفرض (الضرائب)دون (النفقات). حيث بدأ البرلمان الانكليزي قانعًا (بتقييد المبالغ الضريبية)التي يفرضها الملك مع (السماح له بإنفاق الأموال كما يشاء). وبعد أن بلغت الخلافات في القرن السابع عشر ذروتها إبان الثورة المجيدة Glorious Revolution (١٦٨٨-١٦٨٩) وهي الثورة التي شهدت خلع الملك جيمس الثاني ملك إنجلترا وخلفته إحدى بناته وزوجها لأسباب سياسية ودينية وكذلك بعد اقرار : مدونة الحقوق ، فقد وسع البرلمان الانكليزي اهتمامه من الضرائب إلى مسألة التحكم في الإنفاق وتقييدها للمرة الاولى في تاريخ المالية العامة الاوروبية.

هنا تذكرت جلياً ان تواريخ العديد من البلدان قد تحولت انظمتها السياسية جراء الازمات المالية . ففي فرنسا ، على سبيل المثال ، كان الصراع بين الملك والنبلاء في السيطرة على عائدات الضرائب أحد اهم أسباب الثورة الفرنسية(١٧٨٩)وهي الثورة التي أدت إلى الإطاحة بالنظام الملكي والنبلاء جميعاً .

٤- ختاما، وطالما ان وثيقة الماجنا كارتا كانت في جولة حيه في شمال القارة الامريكية ، فلابد من القول ان الولايات المتحدة الامريكية هي نفسها لم تخلوا من الحروب الباردة

للمالية العامة . ولم يخلوا نظام الموازنة الأمريكية من الجدل هو الاخر . ففي الأيام الأولى من قيام الجمهورية كان هناك نزاعاً بين ألكسندر هاملتون وتوماس جيفرسون حول مقدار السلطة التقديرية discretionary التي يجب أن تمارسها السلطة التنفيذية في إنفاق الأموال العامة. وهو الامر الذي مكّن انتصار جيفرسون في الكونجرس من تأكيد سلطة النواب العالية على توزيع التخصيصات مما حد من التصرفات المالية للسلطة التنفيذية. ولو فاز هاملتون وقتها، لكانت وزارة الخزانة الامريكية قد حصلت على سلطة استثنائية في الانفاق مصدرها الكونغرس والرئيس معاً .

(*) باحث وكاتب اقتصادي أكاديمي. المستشار المالي لرئيس الوزراء العراق ونائب محافظ البنك المركزي السابق

حقوق النشر محفوظة لشبكة الاقتصاديين العراقيين. يسمح بإعادة النشر بشرط الإشارة الى المصدر. 27 آب 2022

Iraqi Economists Network – شبكة الاقتصاديين العراقيين